

الأمن القومي في فكر علماء السلف



بهاء الدين الزهري

باحث في السياسة الشرعية

ملخص الدراسة

لقد تناولت الشريعة الإسلامية مفهوم الأمن الوطني والقومي والاجتماعي والإنساني، وغير ذلك من مفاهيم الأمن؛ لأنَّ شأنها شأن سائر العلوم موجودة في دولة الإسلام منذ نشأتها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أرسى دعائمها ومبادئها. وتناولها بعد ذلك الصحابة فالتابعون تطبيقاً عملياً في القرون الأولى، إلى أن ظهر تدوين العلوم تدريجياً فتمت صياغته في كتب الفقه والتوحيد عامة، والسياسة الشرعية والأحكام السلطانية خاصة، لاسيما عند الحديث عن وظائف الإمام.

تناولت هذه الدراسة مفهوم الأمن القومي في الإسلام، عناصره ومعانيه ودلالاته، ونطاقه وأبعاده ومجالاته، من خلال تناول علماء السلف له في كتبهم، وبصورة مبسطة خالية عن التعقيد. موضحين- إن شاء الله- أن ذلك الفهم لعلماء السلف مستند الكتاب والسنة.

ترجع المعاني المشتقة من كلمة الأمن لغةً إلى أصلين متقاربين: أحدهما: الأمانة التي هي ضدَّ الخيانة، ومعناها سكون القلب وطمأنينة النفس. والآخر: التصديق.

وعرف البقاعي الأمن بأنه: سكون النفس بتوقع الخير، والخوف: انزعاج النفس بتوقع الشر. والتعريف المختار هو طمأنينة النفس، وعدم الخوف، مع توقع الخير، حالاً ومآلاً. أو: سكون النفس بتوقع الخير، حالاً ومآلاً.

وقد عظم الإسلام مفهوم الأمن في مواضع مُتعددة مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، وقوله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا». فإذا أمن الإنسان على نفسه، وبيته، وطريقه ومسلكه، فماذا بعد ذلك يفقده من الأمن؟ فالأمن هنا في أعلى صورته، ويبلغ مداه في الاتساع.

كما تضعنا رؤية السلف لقضية الأمن القومي، أمام تحديات عسيرة وصعبة، لا سيما في الوقت الذي تمر به الأمة الآن، والذي يعد من أسوأ فترات الاستضعاف على مر تاريخها، والذي تحتاج فيه إلى نهضة حضارية شاملة، في مختلف العلوم. في الوقت الذي تواجه فيه تحديات خارجية من مختلف الدول الكبرى، تضع العراقيل أمام نهضتها الشاملة. وأخرى داخلية من أذئاب الخارج، ومنافقي الداخل، وحاملي لواء التبعية والانهازامية. هنا تطرأ علينا الحاجة الملحة إلى فقه جديد في السياسة الشرعية، لاسيما في العلاقات الدولية، والسياسة الخارجية، والدبلوماسية الرفيعة المستوى.

الأمن القومي في فكر علماء السلف



بهاء الدين الزهري
كاتب وباحث إسلامي

الإطار العام للدراسة:

إن مفهوم الأمن الوطني أو القومي أو الاجتماعي أو الإنساني أو غير ذلك من مفاهيم الأمن، شأنه شأن سائر العلوم، موجود معتبر في الشريعة الإسلامية، وفي دولة الإسلام منذ نشأتها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أرسى دعائمها ومبادئها. وتناولها بعد ذلك الصحابة فالتابعون تطبيقاً عملياً في القرون الأولى، إلى أن ظهر تدوين العلوم تدريجياً فتمت صياغته في كتب الفقه والتوحيد عامة، والسياسة الشرعية والأحكام السلطانية خاصة، لا سيما عند الحديث عن وظائف الإمام.

فالنظر في تناول العلماء وتحديدهم ورسمهم لوظائف الإمام وبيان مهماته، يجد ما تم الاصطلاح عليه في العصر الحديث بـ «الأمن القومي»، أو غيره من المسميات، يتضاءل أمام تناول شريعة الإسلام لهذا المفهوم بصورة شمولية حضارية لا نظير لها.

وسوف نتناول في هذه الدراسة مفهوم الأمن القومي في الإسلام، عناصره ومعانيه ودلالاته، ونطاقه وأبعاده ومجالاته، من خلال تناول علماء السلف له في كتبهم، وبصورة مبسطة خالية عن التعقيد، موضحين - إن شاء الله - أن ذلك الفهم لعلماء السلف مستند الكتاب والسنة.

المشكلة البحثية:

تكمن إشكالية البحث في عدة أمور:

أولاً- عدم وجود صياغة مستقلة لهذا المفهوم في كتب السلف، وبهذا المصطلح، ولكن تمت صياغة هذا المعنى وفق آليات معينة عند الحديث عن الإمامة وسائر مسائل السياسة الشرعية خاصة الأحكام السلطانية وأبواباً أخرى من أبواب الفقه المختلفة.

ثانياً- في المقابل فإن الذي يتناول هذا المصطلح يغلب عليه التعامل معه وفق ما استقر في العلوم السياسية الحديثة، أو ما ارتبط بها من مفاهيم، فربما يدخله ذلك في قالب مغلق، يصعب الخروج منه إلى رحب المفهوم في الشريعة، حيث لا يجد ما يقرؤه هاهنا وهناك.

ثالثاً- الأصل أن تناول المفهوم في الشريعة يجري وفق سائر المفاهيم والمضامين الشرعية من حيث الاتصاف بالعموم والشمول.

ما مدى التطابق بين المفهوم من المنظور الإسلامي وبين المفهوم الحديث وأوجه الاتفاق والاختلاف؟

ما مدى مساهمة علماء السلف في تبيين المفهوم وصياغته في إطار نظري يتفق والغرض والمقصود من قضية الأمن القومي؟

أهمية الدراسة:

إن مصطلح الأمن لا يتعلق فقط بالدول والمجتمعات بل يتعلق كذلك بالأفراد، فكل إنسان له محيطه الخاص، وبالتالي له نطاق من الأمن لا غنى له عنه، ولا تستقيم حياة إنسان إلا بتوافر قدر من الأمن يستطيع من خلاله ممارسة نشاطه الإنساني.

فلو تخيلنا ذهاب الأمن عن فرد أو مجموعة من الأفراد أو مجتمع ما أو دولة وأمة، فلا شك أن مسيرة حياتها سوف تتعطل، وتتوقف معها الغاية من الوجود الإنساني، وتضيع المقاصد التي تتوقف عليها حياة الناس، لا الكماليات فحسب بل والحاجات والضرورات، وتختل الحياة بأكملها.

من أجل ذلك كان اهتمام الإسلام خاصة بالأمن، وجاء بصياغة فريدة لمنظومة ونظرية الأمن، بل إنه جعل مدار السعادة في الدنيا والآخرة على الأمن.

وتتعاظم هذه الأهمية في عالم اليوم الذي يموج بكثير من المتغيرات الاجتماعية والسياسية، لا سيما من ناحية الأمن، في ظل الصراع العالمي من أجل القوة والسيطرة، بين الدول الكبرى.

الأهمية العلمية:

بالرغم من الاهتمام البالغ من الشريعة -كتاباً وسنة- بقضية الأمن القومي، إلا أن المساهمة العلمية لم ترق بعد إلى هذا المستوى، ولا بد من إثراء هذه

مفهوم الأمن مثل غيره يتصف بالشمول، فتجد نصوص الشريعة - المباشرة وغير المباشرة - تتناوله في مواضع شتى من أبواب الشرع، كما تجده ينتظم أبواب الحياة أجمع.

وذلك وفقاً لحضارية النصوص الشرعية، التي تخاطب الفرد والأمة في صورة متكاملة متشابكة متداخلة مترابطة، يدعم بعضها بعضاً.

رابعاً- إن كثيراً من المفاهيم لم تتعرض لها الشريعة بأن تضعها في إطار نظري جامد؛ لكونها من المتغيرات الحياتية، فما يصلح نظرية في زمن ما لا يصلح في آخر، بل ما يصلح نظرية في مكان ما لا يصلح لمكان آخر في نفس الزمان، وهذا شأن العلوم الاجتماعية والإنسانية.

وكذلك مصطلح الأمن، وضعته الشريعة في إطار متكامل، متفاعل مع متغيرات الزمان والمكان.

أسئلة الدراسة

استناداً إلى الإشكاليات المتقدمة فإن هذه الدراسة تسعى إلى الإجابة على التساؤل الرئيس التالي:

كيف يمكن صياغة نظرية للأمن القومي في الإسلام؟

وينبثق عن هذا التساؤل الرئيس العديد من الأسئلة الفرعية وهي:

ما مفهوم الأمن في الإسلام؟ وما دلالاته؟ وما نطاق الأمن في الإسلام؟ وما أبعاده؟

إلى أي مدى تعاملت الشريعة مع قضية الأمن القومي لدولة الإسلام؟

الفصل الأول

فلسفة الأمن القومي في الإسلام

المبحث الأول: مفهوم الأمن لغة واصطلاحاً:

لغة:

ترجع المعاني المشتقة من كلمة الأمن لغة إلى أصلين متقاربين: أحدهما: الأمانة التي هي ضدّ الخيانة، ومعناها سكون القلب وطمأنينة النفس. والآخر: التصديق. ^(١)

وَالْأَمَانُ وَالْأَمَانَةُ بِمَعْنَى. وَقَدْ أَمِنْتُ فَأَنَا آمِنٌ. وَأَمِنْتُ غَيْرِي، مِنَ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ. ^(٢)

ووجه تقاربهما أن التصديق أيضاً يرجع إلى سكون القلب، من المصدق، ألا يكذب، ومن المصدق، يطمئن إلى محدثه. ومنه: الأمانة والأمنة: الذي يثق بكلّ أحد. ^(٣) وعلى هذا القدر من المعنى ترجع مشتقات الكلمة إلى: سكون القلب وطمأنينة النفس.

لذا قالوا: الأمن ضدّ الخوف. ^(٤)

وَالْمَأْمَنُ: مَوْضِعُ الْأَمْنِ. وَالْأَمْنَةُ مِنَ الْأَمْنِ. وَالْأَمَانُ: إعطاء الأمانة.

وَالْأَمَانَةُ: نَقِيضُ الْخِيَانَةِ، وَالْمَفْعُولُ: مَأْمُونٌ وَأَمِينٌ. وَمُؤْتَمَنٌ مِنْ أَيْتَمَنَهُ. ^(٥)

وقوله تعالى: «وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ» قال الأخفش: يريد الآمين، وهو من الآمن. قال: وقد يقال

(١) ابن فارس، مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، (١٣٣/١).

(٢) الجوهري، الصحاح، دار العلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م، (٢٠٧١/٥).

(٣) الجوهري، الصحاح، نفس الموضع.

(٤) الخليل بن أحمد، العين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، (٩٠/١). الجوهري، نفسه. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٦٩/١).

(٥) الخليل بن أحمد، العين، نفس الموضع.

القضية من الباحثين والدارسين على جميع المستويات، تحليلاً وتفصيلاً، حتى تصير نظرية واضحة جلية في ذهن كل مسلم، وليس كل عالم أو باحث أو متخصص.

لذا كان من الضروري محاولة الوصول إلى إطار نظري عام مقارب لنظرية الأمن في الإسلام، تتضح بها هذه الرؤية الإسلامية العبقريّة للأمن، وهذه محاولة متواضعة في هذا الشأن.

الأهمية العملية:

لن تصبح الأمة الإسلامية في مأمن وأمان من الخطر والتهديد - الذي يعصف بها اليوم من كل جانب - حتى تصبح قضية الأمن واضحة في ذهن كل مسلم، يقوم هو بنفسه برعايتها وتطبيقها، وصولاً إلى مركز الدولة، وهو الإمام أو الرئيس.

عما يعلم كل مسلم وظيفته الحقيقية تجاه هذا الدين عقيدة وفكراً وعملاً في جميع المجالات، عندها يكون لهذه الأمة شأن آخر بين سائر الأمم.

منهج الدراسة

المنهج المتبع في هذه الدراسة أساساً هو المنهج التحليلي لنصوص علماء السلف ومن قبلهم الكتاب والسنة؛ لاستخراج المعاني والدلالات، وصولاً إلى حقيقة المفهوم.

وسوف نستخدم أيضاً كلاً من المنهج الاستقرائي في محاولة لاستخراج النصوص المتعلقة بموضوع الدراسة في مصادر البحث.

وأيضاً المنهج المقارن لمعرفة نقاط الاتفاق والاختلاف بين مفهوم الأمن القومي في الإسلام، وبين المفاهيم الحديثة، باختصار شديد.

الأمين المأمون^(١)

والإيمان: التصديق نفسه^(٢).

وقوله تعالى: «وما أنْتَ بمُؤْمِنٍ لَنَا»، أي: بمُصَدِّقٍ. والتَّامِّينَ من قولك: أمين. وهو اسم من أسماء الله^(٣).

والله تعالى الْمُؤْمِنُ، لأنَّه آمَنَ عِبَادَهُ من أن يظلمهم^(٤). أو أنه تعالى يُوْمِنُهُم في القيامة من عذابه^(٥).

وناقة أَمُون، وهي الأمانة الوثيقة، أي: الموثَّقة الخلق، التي أُمِنَتْ أن تكون ضعيفة. مثله: ناقة عضوب، يعضب فخذها حين تحلب حتَّى تدر^(٦).

فهذه جملة المعاني المستخرجة من لفظ الأمن لغةً: السكينة والطمأنينة والتصديق، والثقة من القلة والضعف، والأمن من الخيانة ومن الخوف ومن العذاب.

وكلها تعود إلى: سكون القلب وطمأنينة النفس.

اصطلاحاً:

أولاً: العلماء من المفسرين والفقهاء: اتفق تعريفهم لكلمة الأمن باعتبار ما تؤول إليه حالة الفرد الأمن، أو المجتمع الأمن. ولم يخرج عن الاستعمال اللغوي، من حيث الدلالة على السكينة والطمأنينة والاستقرار، حالاً ومالاً، على مستوى الفرد والجماعة.

وإن كان منحى العلماء إلى تعميم التعريف - دون اختصاص بفرد أو مجتمع أو دولة أو أمة أو غير ذلك - دلالة منهم على عموم المدلول، وشمول المفهوم.

(١) الجوهرى، الصحاح، (٢٠٧٢/٥).

(٢) الجوهرى، الصحاح، (٢٠٧١/٥).

(٣) الخليل بن أحمد، العين، نفس الموضع.

(٤) الجوهرى، الصحاح، (٢٠٧١/٥).

(٥) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، (٦٩/١).

(٦) الخليل بن أحمد، العين، نفس الموضع. الجوهرى، الصحاح، (٢٠٧٢/٥).

قال البقاعي: والخوف: انزعاج النفس بتوقع الشر، وضده الأمن: وهو سكون النفس بتوقع الخير.

وهذا من أبرع التعريفات، لكونه لم يعبر فقط عن زوال مسببات الخوف ووجوهه وأحواله وإنما تعداه إلى حصول أضرار ذلك بتوقع الخير، إلا أنه يختص بالمستقبل والمآل، وقد يدل السكون على الحال.

وربما يكون أعم منه قول أبي حيان: الأمن: زوال ما يحذر. بشرط الاستمرار من الحال والحاضر إلى المآل والمستقبل.

إلا أن قول أبي حيان في تفسير الآية ﴿وَإِذَا آمَنْتُمْ مِّنْ تَمَنَعٍ بِالْعَمْرِ إِلَى الْحَجِّ﴾ تفسير خاص.

وأما قول الشيخ رشيد رضا: طمأنينة النفس، وعدم الخوف. فظاهره حالاً ومالاً، فيكون قد جمع بين القولين.

وقد يقال: إن عدم الخوف لا يلزم بالضرورة حصول الخير، ولكن من تمام الأمن زوال الخوف وحصول الخير، واستمرار ذلك في الحاضر والمستقبل. فيحتاج إلى زيادة البقاعي.

وكذلك هو أعم من قول الجرجاني: عدم توقع مكروه في الزمان الآتي. لأنه لم يذكر الزمان الحالي.

لذا فالتعريف المختار: طمأنينة النفس، وعدم الخوف، مع توقع الخير، حالاً ومالاً.

أو: سكون النفس بتوقع الخير، حالاً ومالاً.

فائدة:

قد يقال: إن سكون النفس بتوقع الخير، يوفر الإحساس بالأمن، لكون صاحبه يستعمل الإيمان بالله تعالى، ويحسن الظن، ويخلص في الثقة والتوكل.

والجواب: أن ذلك لا يتوفر لأحاد الناس، بل لخواصهم، وإن كان ذلك مقتضى الإيمان. لذا كان ذلك المعنى يدل عليه لفظ الأمن لغة.

كما عبرت عنه الآية والحديث.

أما الآية فقوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قَرْشٌ ۙ (١) إِيْلَهُمْ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

في هذه الآية أربع كلمات أدلت:

الإيلاف، والعبادة، والإطعام، والأمن.

ففي الآية تذكير قريش بنعمة الله عليهم؛ إذ يسر لهم ما لم يتأت لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين في السنة كلها بما يسر لهم من بناء الكعبة وشرعة الحج، وأن جعلهم عمار المسجد الحرام، وجعل لهم مهابة وحرمة في نفوس العرب كلهم في الأشهر

الحرم وفي غيرها، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولأذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحملونهم سلعهم، وصارت مكة وسطاً تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى

طالبها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة؛ إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع؛ إذ كانوا بوادٍ غير ذي زرع وكانوا يجلبون أقواتهم، بعضها من بلاد اليمن، وبعضها من بلاد الشام، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم، وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.

فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف مع أن لله عليهم نعمًا كثيرة؛ لأن هذا الإيلاف كان سببًا جامعًا لأهم النعم التي

وعليه فالإحساس بالأمن على هذا التعريف يمثل حقيقة واقعية، بتوفر أسباب الأمن ووجوهه وأحواله، التي يكون من نتائجها سكون النفس وطمأنينة القلب.

ثانيًا: أما علماء السياسة المعاصرون فقد اتسع تعريفهم لكلمة الأمن إلى ذكر تفاصيل أمور تدابير الأمن. كما اختلف تعريفهم للأمن من حيث ما أضيف للكلمة، فثم الأمن الوطني، والأمن القومي، وهما أكثر ما يُتحدث عنه ويراد عند إطلاق كلمة الأمن، وثم الأمن المجتمعي، والإنساني، وغير ذلك.

ولكن ما يعيننا في هذا المقام تعريف الأمن عند السلف، والذي يتضح أن السلف لم يتعرضوا لتعريف الأمن ككلمة اصطلاحًا، وإنما تعرضوا للمفهوم، وفرق بين التعريف والمفهوم.

والحاصل أن ما ذكرناه تعريفًا للأمن اصطلاحًا، هو المضمون الذي اعتمد عليه علماء السياسة الشرعية عند تنظيرهم لوظائف الإمام.

وهذا ما سوف يتضح جليًا في الفصل الثالث، مع ملاحظة أنهم قد راعوا في ذلك أمرين أساسيين:

الأول- أن هذا المفهوم من المتغيرات، ولكن المضمون الذي تم تعريفه يمثل القدر الثابت الذي يجب أن تؤول الأمور إليه.

الثاني- شمولية هذا المفهوم بصورة لا نظير لها، بحيث يتحقق هذا المضمون على أتم وجه، وأكمل صورة.

المبحث الثاني: شمولية المفهوم في الإسلام:

آية وحديث، هما يعتبران من أعظم الأدلة على شمولية مفهوم الأمن في الإسلام، كما أنه لا يوجد تعبير عن الأمن القومي في تعريفات أهل السياسة

بها قوام بقائهم.^(١)

وطرق تحقيقها باختلاف الزمان والمكان.

وفي هذا القدر من الكلام: جوهر الأمن في الاصطلاح.

فقد كان هذا الإيلاف علة رئيسة للأمر بالعبادة، سواء أريد من إلف اتصال رحلتي التجارة وعدم انقطاعهما، أو أريد الألفة التي تحدث لقريش

من الحفاظ على وحدتهم وجماعتهم وبقائهم.

واتصال رحلتي التجارة، له تعلق بالإطعام من الجوع، كما أن الحفاظ على وحدتهم، له تعلق بالأمن من الخوف، ولا يخفى ما في ذلك من الطمأنينة والسكينة الحاصلة لهم.

فالذي يظهر أن فضل ذلك كله يرجع إلى نعمة الأمن، فلولا ما كانت رحلتنا التجارة، وما كان إطعام، وما كان إيلاف.

فالإيلاف هو نتيجة الأمن والتجارة والإطعام. وهذه النعم تستوجب العبادة لله تعالى.

فإن رحلتي التجارة، إشارة إلى الأمن الداخلي والخارجي، المتعلق بالتجارة والغذاء والاقتصاد.

والأمن من الخوف، أيضاً إشارة إلى الأمن الداخلي والخارجي، المتعلق بالسلامة من المهددات الداخلية بأنواعها، والمهددات الخارجية بأي صورة كانت.

والأمن من الخوف أيضاً يشمل الأمن من خوف الجوع، فيكون من باب ذكر العام بعد الخاص، والله أعلم.

فالإيلاف غاية أمنية يجب تحقيقها، والآية أشارت إلى وسائل عامة وهامة، وتختلف تسميتها أو سبل

فها هنا أمن: غذائي، ونفسي، وتجاري، واقتصادي، وعسكري، وشرطي. وما يستتبع ذلك بالضرورة من أبعاد أخرى. كما أن نفي الخوف، وهو لفظ عام، يدخل فيه كل متعلقات الأمن.

كما نلاحظ أن ذكر العبادة جاء مترتباً على ذكر هذه النعم، وأن هذه العبادة لا تتحقق على وجهها الأمثل إلا مع وجود هذه النعم.

فلم يذكر العبادة إلا بعد حصول الإيلاف، والإيلاف بحصوله يحصل الاستقرار المجتمعي الآمن المطمئن الشامل.

لا نستطيع إقامة الدين والعبادة على وجهها الكامل الأمثل إلا مع توافر الأمن، الذي يتحقق به هذا الإيلاف وتستقيم حياة الناس. فإذا كان الدين والعبادة شرط التمكين، فهو كذلك سياج الأمن وسبيل حفظه واستمراره، فإن الدين قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها

كمثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذْهَبَ اللَّهُ لَهَا لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]

فلا نستطيع إقامة الدين والعبادة على وجهها الكامل الأمثل إلا مع توافر هذا المجموع من الأمن، الذي يتحقق به هذا الإيلاف وتستقيم حياة الناس.

فإذا كان الدين والعبادة شرط التمكين، فهو كذلك سياج الأمن وسبيل حفظه واستمراره، «فإن الدين قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها»^(٢)، والتمكين شرط لاستقرار العبادة واستمرارها، بحصول الأمن. وسيأتي لذلك مزيد بيان.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَصْلَخْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ دِينَهُمْ وَارْتِضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

(٢) الماوردي، أدب الدنيا والدين، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص: ١٦٨.

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، (٥٥٩/ - ٥٦٠)، بتصرف يسير.

خَوْفَهُمْ أَمَّا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا^٤ [النور: ٥٥].

وأما الحديث:

فحديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه، وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»^(١)

آمناً في سربه: بكسر السين، أي في نفسه. وروي بفتحها، أي في مسلكه. وقيل: بفتحتين، أي في بيته.^(٢)

وهذه المعاني الثلاثة مرادة من الحديث، وليس بينها اختلاف أو تضاد، فعلى الأول، فالمراد شيء غير صحة النفس، لأنه ذكرها بعد ذلك، فكونه آمناً في نفسه، يشمل أمنه في بيته، كالثالث، وأمنه في طريقه ومسلكه، كالثاني.

وإذا أمن الإنسان على نفسه، وبيته، وطريقه ومسلكه، فماذا بعد ذلك يفقده من الأمن؟

والسرب أيضاً الجماعة، فالمعنى في أهله وعياله.^(٣) هو آمن في سربه بكسر السين أي في نفسه،^(٤) وهو

آمن في سربه بفتح السين أي في جماعته.^(٥)

والسين والراء والباء أصل مطرد، يدل على الاتساع والذهاب في الأرض.^(٦)

فالأمن هنا في أعلى صورته، ويبلغ مداه في الاتساع. وهل يشمل ذلك أمنه الفكري والنفسي، يحتمله الحديث كذلك، فقد قالوا: «هو واسع السرب» أي: رَحِيُّ البال.^(٧)

قال المبرد: «في سربه»: في مسلكه، يقال: فلان واسع السرب وخلي السرب، يريد المسالك والمذاهب، وإنما هو مثل مضروب للصدر والقلب.^(٨)

وقال ثعلب: فلان واسع السرب، أي الصدر.^(٩)

بل ويشمل أيضاً أمنه المالي والاقتصادي، فقد قالوا: فإذا قيل: فلان آمن في سربه بالفتح، معناه هو آمن في ماله وطريقه. وإذا قيل: هو آمن في سربه بالكسر فمعناه آمن في نفسه ونسائه وحرمة.^(١٠) وعلى لفظه: السرب: الإبل وما رعى من المال.^(١١) وقال ثعلب: والسرب: المال الراعي.^(١٢)

قال ابن حمدون: وقال بعض الأدباء، وقد سئل عن العيش: العيش في الغنى فإنني رأيت الفقير لا يلتذ بعيش أبداً، وقال السائل زدني، قال: الصحة، فإنني رأيت المريض لا يلتذ بعيش أبداً، قال: زدني، قال:

(٥) أبو علي القالي، الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٤٢/٢).

(٦) ابن فارس، مقاييس اللغة، (١٥٥/٣).

(٧) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: ٢٢٤. أبو علي القالي، الأمالي، (٢٤٢/٢).

(٨) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة الرسالة، بيروت، (٢٠٦/١) - (٢٠٧).

(٩) ثعلب، مجالس ثعلب، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، (٢٠٠/٥).

(١٠) أبو القاسم الزجاجي، أخبار أبي القاسم الزجاجي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ص: ٢٠.

(١١) أبو علي القالي، الأمالي، (٢٤٢/٢).

(١٢) ثعلب، مجالس ثعلب، (٢٠٠/٥).

(١) حديث حسن. رواه الحميدي (٤٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠)، والترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، من طرق عن مروان بن معاوية، عن عبد الرحمن بن أبي شميلة الأنصاري، عن سلمة بن عبيد الله بن محصن به. وإسناده حسن، سلمة مثله يحتمل، ذكره ابن حبان في الثقات (٣٩٨/٦)، وقال ابن معين (فيض القدير - ٦٨/٦): مشهور، وقال العقيلي في الضعفاء (٥١٣/٢): مجهول في النقل. وسئل عنه أحمد، فقال: لا أعرفه. وقال الحافظ في التقریب: مجهول. والحديث له شواهد، أقواها عن ابن عمر رضي الله عنهما، رواه الطبراني في الكبير (٢٢٢)، وفي الأوسط (١٨٢٨). وفي الباب عن أبي الدرداء رواه ابن حبان (٦٧١). فالحديث حسن بالجملة، وقال الترمذي: حديث حسن. وقال البيهقي في الشعب (٩٨٧٨) عن حديث الباب: هذا أصح ما روي في الباب.

(٢) المناوي، فيض القدير، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، (٦٨/٦).

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، دار الفكر، بيروت، (١١/٧).

(٤) ابن قتيبة، أدب الكاتب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص: ٢٢٤.

الأمن فإنني رأيت الخائف لا يلتذ بعيش أبداً قال: زمني، قال: لا أجد مزيداً.

فهذا الكلام على كمال تقسيمه واستغراقه المعنى إنما أخذه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أصل كل حكمة ومألفها: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقها»^(١).

وأيضاً الأمن في سربه، آمن في بدنه، وآمن على قوت يومه، فيكون عامناً يشمل ما بعده، وإنما خص ما بعده بالذكر لأهميتهما في باب الأمن.

وهكذا اشتملت الآية والحديث على الأمن المادي، بجميع أنواعه، وكذلك الأمن المعنوي أو النفسي.

المبحث الثالث:

اصطلاح الأمن القومي من المتغيرات:

كما أسلفنا فقد اعتمد علماء السلف على هذا التعريف للأمن: «طمأنينة النفس، وعدم الخوف، مع توقع الخير، حالاً ومآلاً» كمضمون لمفهوم الأمن القومي، أو كقدر ثابت يجب تحقيقه عند التعرض لقضية الأمن القومي.

ولم يتم تحديد أي نفس في التعريف، فالغرض كل نفس تقع داخل إطار الدولة الإسلامية.

فصارت قضية أمن كل فرد من أفراد الدولة الإسلامية منطلقاً أساسياً لأهل العلم، يتحقق به أمن المجموع أو أمن الدولة.

كما لم يتعرض التعريف لمن يقوم بتحقيق الأمن.

كما لم يتعرض لذكر الإجراءات التي بها يتحقق الأمن.

فأشبه التعريف القيمة العليا التي لا بد من تحقيقها

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، (٢٤٩/١).

لكي يتوفر الأمن.

أما من يقوم بتحقيق الأمن، فهو كل فرد من أفراد الأمة، لا سيما أهل القدرة والإمكان - لا سيما وأغلب ما نتحدث عنه من الفروض الكفائية إن لم يكن جميعه - وصولاً إلى مركز الدولة وهو الإمام أو الرئيس، حيث تصير تلك الفروض الكفائية في حقه عينية، كصلاته. فكل له دوره بحسب موقعه. وهذه من مزايا الشريعة الحضارية.^(٢)

وأما الإجراءات، فهو ما تعرض له العلماء بالتفصيل كما سيأتي.

وأمن الفرد هنا يشمل تحقيق جميع مقاصد الحياة ومتطلباتها، وقد جاءت صياغة العلماء لوظائف الإمام، الذي هو مركز الدولة، تحقيقاً فريداً لهذا المضمون، وهذا المفهوم.

وهذا المضمون في الحقيقة هو الغاية الكبرى التي تدور عليها مقاصد الشريعة، التي يصلح بها كل زمان ومكان، لذا كان من الطبيعي تغير الآليات التي يتحقق بها هذا المضمون، بتغير الزمان والمكان، وإن اتفقنا على إطار أو هيكل عام من الثوابت، لا بد من وجوده داخل إطار الأمن القومي.

ومن أجل ذلك كان التعريف للأمن، كمضمون، أو كقدر ثابت يمثل الغاية التي نريدها من قضية الأمن القومي، أما اختلاف التطبيق والآليات، وتغير الزمان والمكان، فإن الحديث لا يكون عن مضمون في تعريف، ولكن مضمون في مفهوم.

فإن تعريف المضمون ذي القدر الثابت، الذي لا يتأثر بتغير الزمان والمكان، أمر يسير، حيث إن التعريف يتصف بالتحديد والدقة، ويراد له أن يكون جامعاً مانعاً.

أما تعريف المضمون باعتبار المتغيرات التي تطرأ أو

(٢) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢١٠-٢١١.

لاختلاف الوقائع، والمنظور، والزمن، وتعدد المتغيرات.

الفصل الثاني

بين مفهوم الأمن القومي في الإسلام وبين العصر الحديث

تبين مما سبق نطاق الأمن في الإسلام، ومجالاته، كما تبين كذلك أبعاد مفهوم الأمن في الإسلام، ومستوياته، وكذلك طبيعة المفهوم.

أما نطاق الأمن فثمة ثلاثة مجالات رئيسة لنطاق الأمن في الإسلام: داخل الدولة. وحدود الدولة. وخارج الدولة.

وأما أبعاد الأمن القومي فثمة: العقدي والسياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والجيوپولوتيكي .. والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يجد التحرك وفق هذه الأبعاد الستة، على أعلى مستوى من التخطيط

جاءت صياغة العلماء لوظائف الإمام، الذي هو مركز الدولة، تحقيقاً فريداً لهذا المضمون، وهذا المفهوم. وهذا المضمون في الحقيقة هو الغاية الكبرى التي تدور عليها مقاصد الشريعة، التي يصلح بها كل زمان ومكان، لذا كان من الطبيعي تغير الآليات التي يتحقق بها هذا المضمون، بتغير الزمان والمكان، وإن اتفقنا على إطار أو هيكل عام من الثوابت، لا بد من وجوده داخل إطار الأمن القومي

والتفكير الاستراتيجي.

وأما مستوياته: بالفرد، والجماعة، والمجتمع، والدولة، والأمة.

وبذلك يتضح لنا طبيعة مفهوم الأمن القومي، فهو يشمل نوعي الأمن: المعنوي والمادي.

والأمن المعنوي يتضمن: العقدي الفكري، أو ما يعبر عنه بعضهم بالمشروع الفكري، أو المشروع السياسي للدولة. ويتضمن الأمن النفسي.

والأمن المادي يتضمن: السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والجيوپولوتيكي. وهذه هي الأبعاد المختصة بالأمن القومي.

الآليات التي تتعلق بكيفية تحقيقه، فإن ذلك يختلف باختلاف المكان والزمان، ومن هنا كان من العبث وضع تعريف صارم - لا يختلف باختلاف الزمان والمكان - لقضية متغيرة.

وأما الإطار أو الهيكل العام من الثوابت، التي لا بد من وجودها داخل إطار الأمن القومي، فهو الضمانة الحقيقية لتحقيق قضية الأمن، وهو ما تعرض له العلماء عند ذكرهم لوظائف الإمام.

وسوف يتضح ذلك من نطاق الأمن في الإسلام، ومجالاته، وأبعاده، ومستوياته، وأركانه.

ونجد أن مرتكزات الدولة لتحقيق القوة والمحافظة

على الوجود، فضلاً عن تحقيق التقدم والنهضة والاستقرار والأمن، كل ذلك من المتغيرات.

فجغرافيا الدولة متغيرة عبر الزمن، والأمن الجغرافي يتعدى حدود الدولة، وكذلك نظامها السياسي، وسياساتها المتبعة، وكذلك وضعها الاقتصادي،

ومواردها الاقتصادية والمالية، وبالتالي رفاهية المجتمع معرضة للتفاوت والتغير، أيضاً القيم المجتمعية عرضة للتغير بحسب قوة الدولة وقدرتها في الحفاظ عليها، وكذلك قوتها العسكرية التي تعتمد بالأساس على المورد المالي الاقتصادي.

كما أن المهددات الداخلية والخارجية متغيرة كذلك، وهي عامل رئيس محدد للأمن، ودرجته، وسبل تحقيقه.

وبالتالي فإن اتفقنا على أبعاد، ونطاق، ومستويات، وأركان، ومرتكزات، فإنما نعرض لمفهوم عام، وإطار هيكلي، يعد من معايير الأمن.

وهذا ما أوجد الاختلافات الكثيرة بين علماء السياسة والاستراتيجية، في تعريفاتهم للأمن،

هذا هو المنظور الإسلامي للأمن القومي لدولة الإسلام، وهو ما يتماشى مع أحد الاتجاهات الحديثة في تعريفها للأمن بمفهومه الشامل.

والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يجد التحرك وفق هذه الأبعاد الستة، على أعلى مستوى من التخطيط والتفكير الاستراتيجي:

«فقد حددت الدولة الإسلامية مكانها الجغرافي، وتحركت لتأمين المجتمع سياسياً، وعقدياً، وقيماً، وأخلاقياً، واقتصادياً، وتربوياً، وتعليمياً، كما تحركت عسكرياً وجيوبولوتيكياً، حاملة القيم الإسلامية،

وارتبطت ديناميكية الحركة بالقدرات الاقتصادية والعسكرية، للحفاظ على المكتسبات الحالية، واكتساب وتنمية قدرات جديدة، مع مراعاة جميع المهددات الداخلية والخارجية».

وهذا القدر يعطي التصور

الإسلامي الشامل لقضية الأمن القومي، وهو الذي تم تطبيقه بالفعل على أرض الواقع.

١- البعد العقدي الفكري (أو الديني): هو ما يعبر عنه بعضهم بالمشروع الفكري، أو المشروع السياسي للدولة.

يمثل هذا البعد القيمة العليا للدولة، والتي يجب عليها حمايتها والعناية بها، ويدخل فيه تأمين العادات والتقاليد والقيم مع الأفكار والمعتقدات، وجميع ذلك يمثل الهوية العامة للدولة، ومن هنا يأتي ارتباطه واتصاله بالبعد الاجتماعي.

وجميع الأبعاد الأخرى خادمة لهذا البعد، كما أن الاعتناء بالأبعاد الأخرى على الوجه الأكمل هو الضمان لحماية هذه القيمة وبقائها.

كما أن ممارسة الأبعاد الأخرى، بل وسائر الأفعال

الإنسانية، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه القيمة، ويصير وفق فلسفة هذا البعد من العبادة.

وهذا يكسبه في الممارسة قوة في الأداء، وفاعلية في النتيجة.

٢- البعد السياسي: يهتم هذا البعد بعملية إدارة الدولة لتحقيق غاياتها الأمنية، على الصعيد الداخلي والخارجي، ويبدأ من عملية وضع السياسات والخطط والاستراتيجيات، إلى تنفيذها، إلى وضع الرؤى والتصورات المستقبلية.

٣- البعد العسكري: البعد

الأشهر استخداماً والأكثر ارتباطاً في تعريفات ومفاهيم الأمن القومي، وهو بُعد في غاية الأهمية؛ إذ يؤدي ضعفه إلى اختلال الأمن القومي بكامل أبعاده، وانهيار الدولة. وهذا البعد له اتصاله المباشر

بكافة الأبعاد الأخرى، والعلاقة

بينهما طردية، طالما كان استخدامه من أجل تحقيق أهداف وغايات الدولة العليا.

وعلى قدر قوة هذا البعد، تتمكن الدولة من تحقيق أهدافها وغاياتها، والحفاظ على قيمها العليا، ومصالحها الحيوية الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وقد اتبع النبي صلى الله عليه وسلم استراتيجية عسكرية فريدة منذ قدومه المدينة، لتأمين الدولة الناشئة اجتماعياً واقتصادياً، في الداخل وفي الخارج.

٤- البعد الاقتصادي: هل يمكن اعتباره ركيزة الأمن؟ ربما، فلا يتصور دولة أو أمة أو مجتمع قادر على تحقيق أمنه السياسي دون تقدم اقتصادي أو قوة اقتصادية حقيقية، ولا أمنه الاجتماعي، فضلاً عن السياسي والعسكري، أما الأمن الديني العقدي الذي يمثل قمة المشروع السياسي للدولة، فيحقق به خطر

الأمن المادي يتضمن: السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والجيوبولوتيكي. وهذه هي الأبعاد المختصة بالأمن القومي. هذا هو المنظور الإسلامي للأمن القومي لدولة الإسلام، وهو ما يتماشى مع أحد الاتجاهات الحديثة في تعريفها للأمن بمفهومه الشامل. والناظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يجد التحرك وفق هذه الأبعاد الستة.

بخلاف فترات متباعدة من التاريخ، حيث يتوقف الجهاد، أو تُقتطع أراضٍ من الدولة الإسلامية لصالح العدو المقاتل، هذا أيضًا بخلاف فترات الاستضعاف، منذ بداية انهيار منحى الدولة العثمانية الإسلامية واثرة الخلافة إلى الآن.

وربما يلحظ المستقرى للتاريخ الإسلامي أن الأمة عندما تتوقف عن الجهاد، يبدأ منحى قوتها في النزول، إلى أن تصبح للضعف والاستضعاف.

ويتصل بهذا البعد: الجغرافيا السياسية للدولة، كما ترتبط بالبعد السياسي أيضًا.

المفهوم في العصر الحديث

المنظور الإسلامي للأمن القومي لدولة الإسلام، على الوجه الذي ذكرنا، هو ما يتماشى مع أحد الاتجاهات الحديثة في تعريفها للأمن بمفهومه الشامل.

فثمة ثلاثة اتجاهات لتعريف مفهوم الأمن: الأول- ينحو إلى الاتجاه العسكري. والثاني- ينحو إلى الاتجاه الاقتصادي. والثالث- هو الذي يعنينا، ويقترّب من المفهوم الإسلامي، وينحو إلى اعتبار التنمية الشاملة، كتعبير عن مفهوم الأمن القومي.

ورائد هذا الاتجاه، هو: روبرت مكنمارا، وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، وهو أيضًا رجل اقتصادي وسياسي.

قال: الأمن القومي هو ما تقوم به الدولة أو مجموعة الدول، التي يضمها نظام جماعي واحد، من إجراءات في حدود طاقتها، للحفاظ على كيانه ومصالحها في الحاضر والمستقبل مع مراعاة المتغيرات المحلية والدولية.^(١)

وقال: الأمن عبارة عن التنمية. ومن دون تنمية لا يمكن أن يوجد أمن. وإن الدول التي لا تنمو في

داهم إذا ما اختل الوضع الاقتصادي.

ولكن لا يعني ذلك اعتباره وحده، بل لأبد من النظر إليه في المنظومة الشاملة للأمن القومي، وقد عادت استراتيجية النبي صلى الله عليه وسلم الأمنية، على الوضع الاقتصادي بأعظم فائدة، بل ربما كانت خادمة بالأساس لهذا البعد المهم للدولة الناشئة، التي تريد لنفسها، ومشروعها مكانًا قائمًا للأمم.

ويرتكز هذا البعد على عدة عناصر اقتصادية رئيسة من أهمها: الزكاة، والصدقات، والأوقاف، والتجارة، والزراعة، والصناعة، والتعدين، ورؤوس الأموال.

ويمثل في الجملة قدرة الدولة المالية، بحيث تستطيع دعم أبعادها الأمنية جميعًا، وتحقيق التقدم والنهضة والرفاهية والاستقرار للمجتمع.

٥- البعد الاجتماعي: يعتبر الإنسان أساس هذا البعد، وقد اهتم به الإسلام ظاهرًا وباطنًا. وكما اهتم به كوحدة فردية، اهتم به كوحدة عاملة فاعلة داخل المجموع. وتكاثرت وتداخلت وتفاعلت وتشابكت النصوص التشريعية، في تلاؤم فريد؛ لتتشئ مجتمعًا مسلمًا فريدًا متماسكًا قويًا متينًا، لم يوجد له مثل في الزمان الأول أو الآخر.

حتى صار هذا المجتمع هو ضمانة الأمن للأمة، بل الحافظ لبيضتها وحوزتها، في أوقات عديدة عظيمة الخطر من التاريخ الإسلامي، سواء في غياب مركزها (الخلافة)، أو اضطراب وضعها العسكري أو الاقتصادي، أو تعرضها لهجمات الأعداء المغيرين.

وأهم ما يركز عليه هذا البعد من عناصر: العلم والتعليم، وقضايا التوحيد خاصة الولاء والبراء، والهوية، والثقافة والفكر، والصحة النفسية والجسدية، ومنظومة الآداب والأخلاق، ورياضة وتهذيب النفوس، والمعاملات الإنسانية المختلفة.

٦- البعد الجيوبولوتيكي: تعتبر الحدود الجغرافية للدولة الإسلامية منذ نشأتها في وضع ديناميكي متزايد

(١) روبرت مكنمارا، جوهر الأمن، ترجمة يونس شاهين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠، ص ٤.

الواقع، لا يمكن، ببساطة، أن تظل آمنة. (١)

هكذا عبر عن مفهوم الأمن بكلمة التنمية، بكل ما تعنيه الكلمة، في جميع الأبعاد: سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية وغيرها، وعلى جميع المستويات: الفرد والدولة أو جماعة الدول. كما ربط بين استمرار التنمية وبين استمرار الأمن.

الفصل الثالث

نظرية الأمن القومي عند علماء السلف

تمهيد: البدء من حديث البيضة

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبج بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبج بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضًا» (٢).

في هذا الحديث مجموعة من التعبيرات النبوية يمكن اعتبارها إشارات أمنية:

«إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها» إشارة إلى البعد العسكري والجيوبولوتيكي والجغرافيا السياسية.

«وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» البعد الاقتصادي، وهو لازم لما ذكر.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) رواه أحمد (٢٧٨/٥، ٢٨٤)، ومسلم (١٩٢٠، ٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

«وإنني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة» إشارة إلى أمنها الداخلي بأبعاده كلها، وفي مقدمته البعد الاجتماعي.

«وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبج بيضتهم» التعبير بالبيضة عن دولة الإسلام بتمامها، وجماعة المسلمين وأصلهم، إشارة إلى أمنها الداخلي والخارجي ومجالها الأمني الحيوي، أو حمى البيضة.

فهذه أبعاد أربعة، لا تتم لدولة الإسلام إلا ببعدين أساسيين آخرين، هما: البعد الديني العقدي الفكري. والبعد السياسي الشرعي.

وبعيدًا عن الحكمة النبوية للتعبير بالبيضة، وكذلك لم كان اختيار البيضة؟ ولم تحديدًا بيضة النعامة على ما ذكر أكثر أهل العلم؟

فإن هذا ما تلقفه أهل العلم في حديثهم عن الأمن القومي في الإسلام.

وهذا يوضح لنا الإطار العام للأمن القومي في الإسلام، كما ذكرنا من قبل:

فالدولة، لها نطاقات أمنية ثلاثة: داخل الدولة. وحدود الدولة. وخارج الدولة.

ومن ثم كان حديث العلماء عن الأمن القومي بنوعيه يشمل هذه الثلاثة مجالات، بأبعاده الست التي ذكرناها، ومستوياته.

واستطاع العلماء وضع نظرية كاملة شاملة للأمن القومي بمجالاته وأبعاده، عند حديثهم عن وظائف الإمام -كما ذكرنا في المقدمة- خلال تناوُلهم وتحديدهم ورسمهم لوظائف الإمام وبيان مهماته، حيث نجد ما تم الاصطلاح عليه في العصر الحديث بـ «الأمن القومي» أو غيره من المسميات يتضاءل أمام تناوُل شريعة الإسلام لهذا المفهوم بصورة شمولية حضارية لا نظير لها.

وأما وجه ربط العلماء لقضية الأمن القومي بوظائف

قيام للدين إلا بالدنيا. (٣)

وقد فصل ذلك الإمام الجويني فقال: الإمامة رئاسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا، مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية

الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والخياف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين. (٤)

وهذا بيان مجمل، لقضية الأمن القومي الإسلامي، دونه الفوضى وضياح الدنيا والدين (٥)، قد فصله الجويني في كتابه الغياثي، وسنأتي عليه، على وجه الإجمال.

أما وجه ربط العلماء لقضية الأمن القومي بوظائف الإمام، فلأنه لا قوام للدين إلا بقوام الدنيا، والدنيا والأمن قضيتان لا تنفصلان، فإن الأمن على الأنفس والأموال وتحقيق الغايات والحاجات والضرورات، بل نظام حياة الناس لا يستقيم إلا بإمام مطاع. ودون ذلك الفوضى والضياح والهلاك.

الإمام؛ فلأنه لا قوام للدين إلا بقوام الدنيا، والدنيا والأمن قضيتان لا تنفصلان، فإن الأمن على الأنفس والأموال وتحقيق الغايات والحاجات والضرورات، بل نظام حياة الناس لا يستقيم إلا بإمام مطاع. ودون ذلك الفوضى والضياح والهلاك.

وعليه فالإمامة والسلطان ورئاسة الدولة شيء ضروري في نظام الدنيا، ونظام الدين، ونظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة، وهو مقصود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلى تركه، وكانت قضية الأمن هي رأس مهمات الدين. (١)

فلسفة التصور

جاءت صياغة نظرية الأمن القومي في الإسلام باعتبار نوعيه: المادي والمعنوي، ومجالين: الدين، والدنيا. وثلاثة نطاقات: الداخل، والخارج، والحدود بينهما. والأبعاد الستة.

وكانت ترجمة ذلك عبر أجنحة ثلاثة:

الأول: تأمين العقيدة: وإفرادها لأهميتها، فهي السبب والشرط الموصل للغاية والنتيجة. وإن كانت الغاية والنتيجة هي التمكين والأمن التام، فإن الهدف من الوصول لهذه الغاية: هو استمرار تحقيق الأمن العقدي في أسمى صوره.

مفهوم الأمن الشامل وفقاً لتقسيم العلماء

لوظائف الإمام

جاء البعد الديني العقدي الفكري على رأس المهمات والأولويات، لا جرم أنه يمثل القيمة العليا التي تتبنى عليها سياسات الدولة.

يقول الماوردي: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا. (٢)

وحفظ الدين يمثل البعد العقدي للأمن القومي، وسياسة الدنيا به تمثل سائر الأبعاد.

ولا يوجد في الفكر السلفي هذا الفصام النكد المعاصر بين الدين والدنيا، فالدين هو نجاة الإنسان في الدنيا والآخرة، والدنيا هي قوام هذا الدين، ولا

(٣) انظر الجويني، غياث الأمم، تحقيق عبد العظيم الديب، الطبعة الثانية، قطر، ١٤٠١هـ، ص: ٢٢ وما بعدها. الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، (ص: ٢٠٠-٢٠١).

(٤) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٢.

(٥) انظر الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٣-٢٤، ١٨٠-١٨٣.

(١) انظر الجويني، غياث الأمم، تحقيق عبد العظيم الديب، الطبعة الثانية، قطر، ١٤٠١هـ، ص: ٢٢ وما بعدها. الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، الحكمة للطباعة، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، (ص: ٢٠١-٢٠٢).

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار ابن قتيبة، الكويت ١٩٨٩م، الطبعة الأولى، ص: ٣.

ويتعلق هذا بأصل الدين. (١)

ويندرج تحته: تأمين العقيدة والفكر داخل نطاق الدولة وخارجها. وما يستتبعه من استخدام أنواع السياسة التي تصل إلى استخدام القوة.

ويشمل:

١- ضبط المجتمع بالعقيدة.

٢- تأمين العقيدة من الخارج (حمى العقيدة).

الثاني: تأمين المجتمع داخلياً: ويشمل:

١- ضبط المجتمع بالشرعية، بعد ضبطه بالعقيدة.

٢- تأمين المجتمع من الخوف.

الثالث: تأمين المجتمع خارجياً.

الرابع: تأمين الأموال والرجال والعُدَّة اللازمة.

فهذه أربعة مباحث.

المبحث الأول: الأمن الفكري العقدي:

١- ضبط المجتمع بالعقيدة، أو: الأمن الفكري العقدي الداخلي:

وهو ما عبر عنه الجويني بقوله: حَفَظُ الدِّينِ بِأَقْصَى الْوُسْعِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَدَفْعُ شِبْهَاتِ الزَّائِفِينَ. (٢)

وذكر أيضاً «أن الذي يحرص الإمام عليه جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين، قبل أن نبغت الأهواء، وزاغت الآراء». (٣)

فهاهنا حالتان (حفظ ودفع، أو حرص وردع) تستتبعها إجراءات تناسب كلا منها:

الأولى- حرص على إقامة الدين الخالص الصافي

(١) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٠.

النقي، كما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وتوفي وقد أكمله وأتمه وبينه أتم بيان. وهو ما أسماه الجويني بعد ذلك بالمحجة، وهي أصول الدين والعقيدة والتوحيد التي يجب على كل مسلم أن يعتقد بها، وهي التي يجب نشرها وتأمينها في المجتمع، والذي يجب على الإمام أن يحفظ هذا الدين وهذه العقيدة على المسلمين من الكدر والزيغ.

ومدار حفظ الدين وإقامة المحجة على:

- حفظ العلم وإقامته ونشره ووفرة وسائله.

- وإيجاد العلماء على جميع مستوياتهم ووفرته.

- استمرار دعم الدولة السياسي للعلم والعلماء.

ويدخل في هذا أبعاد أمنية سياسية، وتعليمية، وتربوية، وثقافية، وإعلامية، وقانونية، واقتصادية، وغير ذلك، مما من شأنه أن يحفظ المحجة، ويقيم المسلمين على الجادة، ويعصمهم عن سبل الزيغ والانحراف عن الدين.

الحالة الثانية- ردع. لأن حفظ المحجة داخل الدولة يستتبعه لا ريب وسائل الردع ضد كل من تسول له نفسه تكدير هذا النبع الصافي، فضلاً عن إشاعة الأهواء والبدع والضلالات، ليكون الدين محروساً من الخلل، والأمة من الزلل. (٤)

ويدخل في هذا أبعاد أمنية شرطية، وعسكرية، ومخابراتية، وقضائية، واقتصادية.

وفيها حالات أفاض الجويني في ذكرها، والسياسات المتبعة حيالها.

٢- تأمين العقيدة في الخارج (حمى العقيدة) أو الأمن الفكري العقدي الخارجي، وهو ما عبر عنه الجويني بقوله: دُعَاءُ الْجَاهِدِينَ وَالْكَافِرِينَ إِلَى التَّوْحِيدِ

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٢. الجويني، غياث الأمم،

ص: ١٨٤، ٢١٥.

نظرية الأمن القومي في الإسلام:

الأول: تأمين العقيدة.

الثاني: تأمين المجتمع داخلياً.

الثالث: تأمين المجتمع خارجياً.

الرابع: تأمين الأموال والرجال والعُدَّة اللازمة.

للتعريف بالرسالة وصاحبها صلى الله عليه وسلم، والتبصير بدينه، على وجه الحقيقة، لإزالة الشبهات واللبس والضلالات، التي يشيعها الأعداء عن هذا الدين.

والثانية- أن تبتدئ الطلب لطوائف من أهل الكفر، فيرسل إليهم الإمام من يستقل بهذا الأمر من علماء المسلمين، كما ذكر الجويني، وأفاض في صفاتهم^(٣).

ويترتب على رفض الدعوة، وإظهار الجحد، الجهاد والاقتهار بالسيوف، ومبخته وتفصيله في أحكام الجهاد.^(٤)

والحالة الأولى وليدة العصر، وترتبط بحال الدولة، قوة وضعفاً، ومحلها في الأمن الخارجي من أحكام الدنيا.

المبحث الثاني: تأمين المجتمع من الداخل:
ويشمل:

١- ضبط المجتمع بفروع الشريعة، بعد ضبطه

الحَقُّ المُبين.^(١)

وهذا هو القسم الثاني في أصل الدين، وزاده الجويني إيضاحاً: السعي في دعاء الكافرين إليه، فقد أيد الله - عزت قدرته - الدين بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، وحفه بالقوة والعدة، والشوكة والنجدة، والإمام القوام على أهل الإسلام مأمور باستعمال منهاج الحجاج في أحسن الجدل، فإن نجح وإلا ترقى إلى أعمال الأبطال المصطلين بنار القتال. فللدُّعاء إلى الدين مَسْلُكان:

• الأول: الحُجَّة وإيضاح المَحَجَّة.

• الثاني: الاقتهار بفرار السيوف، وإيراد الجاحدين الجاهدين مناهل الحتوف. والمسلك الثاني مرتب على الأول.^(٢)

وهذا انتقال بأمن المحجة والعقيدة من داخل الدولة إلى خارجها.

وهنا حالتان: الأولى- أن تبتدئ الدولة الإسلامية في إرسال البعوث الدينية داعية إلى الله تعالى،

(٣) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٦.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٢. الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٦-١٩٧، ٢٠٦ وما بعدها.

(١) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٨٤-١٩٥.

(٢) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٥.

بالعقيدة، كي «ينتظم أصل الدين بفرعه»^(١).

٢- تأمين المجتمع من الخوف.

١- ضبط المجتمع بالشريعة

ويندرج تحته: العبادات البدنية، والمعاملات والتصرفات المالية. وما يستتبعه من تحقيق الأمن الديني والسياسي، والاقتصادي والاجتماعي، والتعليمي والثقافي والإعلامي والقانوني، وما إلى ذلك.

ويسمى: النَّظَرُ فِي فُرُوعِ

الدين^(٢). ومداره على ضبط المجتمع من أجل الالتزام بالشريعة.

فليس المقصود بالنَّظَرُ فِي فُرُوعِ الدِّينِ تفصيلَ تصرُّفات الإمام في فروع الشَّريعة؛ ولكنَّ ما يَتعلَّق بالنظر في العبادات البدنية^(٣).

وكذلك ما يَتعلَّق بالأئمة من النظر في المعاملات والتصرُّفات الماليَّة؛ وإن كان هذا يذكره فيما يسمى بأحكام الدنيا^(٤)؛ لميسس الحاجة الضرورية للدولة إلى الأموال، من أجل حفظ المجتمع والدولة، في الداخل والخارج، فلا سبيل للإمام لكي يستقل بأداء هذه المهام الجسيمة دون قدرة مالية عظيمة^(٥).

والمقصود بالعبادات البدنية:

أ) العبادات التي تَعَبَّدَ اللهُ بها المكلفين، مثل الصلاة والحج، التي لا يتعلق صحتها بنظر الإمام وإذا أقامها

المتعبدون على شرائطها وأركانها في أوقاتها وأوانها صحت ووقعت موقع الاعتداد^(٦). ولكن الواجب على الإمام مراعاة إقامتها ومراقبة أدائها وترتيب وتسهيل وسائل القيام بها، كما سنذكر.

ب) ما يرتبط من العبادات البدنية بنظر الإمام، سواء كان شعاراً ظاهراً كالجمعة، والأعياد، ومجامع الحجيج، وكالأذان، وإقامة الجماعات -فيما عدا الجمعة من الصلوات-. وسواء ما لم يكن منها شعاراً ظاهراً؛ فلا يَتعلَّقُ به نظر الإمام -ما لم يُرفَع إليه-.

المقصود أنه يجب على الإمام النظر في وقوع هذه العبادات من أفراد الأمة، ومراقبتهم على أدائها في الظاهر، ومحاسبة المتخلف منهم، وإقامة واتخاذ جميع الإجراءات التي تيسر على الناس أداء هذه العبادات.

مثال نظر الإمام في إقامة الصلاة:

إقامة الصلاة شأنها شأن سائر العبادات، يجب على الإمام مراعاة النظر فيها على مستوى الدولة سواء كانت دولة قطرية أو دولة خلافة، وليس معنى ذلك فقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الشعب.

بل إن إقامة الصلاة هي منظومة متكاملة من السياسات العامة والإجراءات داخل أنظمة الدولة، نوجزها فيما يلي:

- ١- التعليم الشرعي (الأزهر والمساجد).
- ٢- التعليم المدني (التربية الإسلامية والتعليم الطبي، وصلاة المريض، والصلاة في المستشفيات، وحالات الطوارئ وتأخير الصلوات).
- ٣- المباني الحكومية والمباني التعليمية (المساجد

(٦) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٨.

(١) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٨.

(٢) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الجويني، غياث الأمم، ص: ١٩٨.

(٥) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٣-٢٠٤.

واقتصادية ومالية وغيرها. وبالجمله فهو يستقيم
الأبعاد الستة سوى الجيوبولوتيكي.

ويذكره أهل العلم فيما يعرف بنظر الإمام فيما يتعلّق
بأحكام الدنيا. ويسمونه بحفظ ما تحويه الخطّة،^(٢)
والخطّة: الأرض يخطها المرء لنفسه^(٣)، فالمقصود
هنا أرض الإسلام. فحفظ الخطّة، أي: الحفاظ على
أهل البلاد وحمايتهم، من أي شيء يخل بأمنهم العام
داخل أرض الإسلام، ليس فقط من أهل البلطجة
وقطاع الطرق مثلاً، ولكن كذلك من أي شيء يخل
بأسباب التواصل والتراحم بين أفراد الأمة.

ومدار هذا الباب على إقامة العدل، فهو الذي يدعو
المجتمع للألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمّر به البلاد،
وتتمو الأموال، وأهم نتائجه الاستقرار والأمن العام.^(٤)

وفي الغالب يتم تقسيم ذلك إلى أمور كلية، تثبت
بالجماعات الخارجة عن القانون والنظام، وأخرى
جزئية، تثبت بخروج الأفراد والآحاد:

(أ) ما يتعلّق بالكليّات:

وهو تطهير بلاد الإسلام عن أهل الشر والبلطجة
والشراسة والشدة والقوة، واللصوص والسراق، ومن
شابههم جميعاً. فالمقصود تمهيد طرق المسلمين وسبلهم
وتأمينها، من الجماعات الخارجة عن النظام والشرع.
ويلتحق بهم البغاة وقطاع الطرق والغواة والطفاة.

وذلك تحقيقاً للأمن والأمنّة والعافية، في أرجاء
الدولة أجمع، حتى تصير كأنها بمرأى ومسمع من
الإمام، ويتسق أمر الدين والدنيا، ويطمئن الناس
جميعاً إلى الأمنّة، فالإمام يكلّوهم بعين ساهرة،
وبطشة قادرة.^(٥)

(٢) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠١.

(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة، (٢/١٥٤).

(٤) الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص: ١٧٤، ١٧٨.

(٥) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٢، ٢١٢-٢١٤، ٢١٤.

والمصليات ودورات المياه).

٤- القوانين المنظمة للعمل والعمالة (إجازة أوقات
الصلوات).

٥- مباني القطاع الخاص (قوانين البناء وأماكن
الصلاة ودورات المياه).

٦- الطرق السريعة والمناطق النائية (إقامة
الاستراحات وشروط بناء المساجد ودورات المياه).

٧- توفير الأمن والأمان للمصلين سواء في الطرقات
أو المساجد أو حتى البيوت.

٨- رقابة إقامة الصلاة في المساجد.

٩- عقوبة المتخلفين عن الصلاة وردعهم.

أي أنها منظومة إجراءات إيجابية وإجراءات
عقابية، وهذا كله لابد أن يظهر في مواد الدستور
وفي السياسات العامة للدولة، وفي سياسات التعليم
وقوانين وسياسات العمل.

فإقامة الصلاة التي علق عليها الرسول صلى الله عليه
وسلم شرعية الحكم، هي أمر أكبر بكثير من مجرد
بناء المساجد، بل هي إجراءات وسياسات عامة كثيرة
ومتشعبة في جميع مستويات ومجالات الحياة ثقافية
وإعلامية واجتماعية وقانونية وسياسية وحتى الأمنية.

ودليل المسألة حديث عوف بن مالك الأشجعي
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيار
أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم
ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم
ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم». قال: قلنا: يا
رسول الله أفلا ننايذهم؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم
الصلاة»، وفي رواية: «لا ما أقاموا لكم الصلاة»،
وفي رواية: «لا ما صلّوا».^(١)

٢- تأمين المجتمع من الخوف، أو تحقيق الأمن المجتمعي
الداخلي

بجميع ما يتضمّنه من متطلبات، شُرطية وقضائية

(١) رواه أحمد (٢٤/٦)، ومسلم (١٨٥٥)، وابن حبان (٤٥٨٩).

القيام بنفسه على وجه الاستقلال لحفظ المقاصد، ومن هؤلاء:

- أهل الولايات: فتقوم الدولة بالولاية على من لا ولي له؛ من الأطفال والمجانين؛ وحفظهم ورعايتهم في أنفسهم وأموالهم.

- سد حاجات المحاييج والفقراء.

- إنقاذ ذوي الفاقات. (٥)

وبالنظر إلى هذا التقسيم البديع، نجد أن أغراض الناس في حياتهم تدور على المقاصد: النفس والمال والعرض والعقل.

فإما أن يستقل الناس بحفظ هذه المقاصد على أنفسهم، وهذا يكون بترتيب الدولة لسد الذرائع وحفظ المقاصد. وإما أن يحدث الاختلال فيتنازعوا، فتكون تراتيب فض الخصومات. ومن الناس من لا يستقل لسبب أو آخر، أو لا يستطيع الاستقلال بحفظ المقاصد على نفسه، فتكون تراتيب الدولة لحفظ هذا الصنف.

ومن ثم كانت هذه الأقسام الثلاثة.

المبحث الثالث: تأمين المجتمع من الخارج، أو تحقيق الأمن المجتمعي الخارجي

سبق الحديث عن تأمين البعد العقدي في الخارج، وأما هذا المبحث فيختص بتأمين سائر أبعاد الأمن القومي، من مفهوم السياسة الخارجية والقوة العسكرية، وسائر العناصر الأخرى. خاصة البعد الجيوبولوتيكي، فهو أخص بهذا الموضوع، مع ما يعرف كذلك بالجغرافيا السياسية.

يقول الجويني: على الإمام بذل كنه الاجتهاد في ابتغاء الازدياد في خطة الإسلام، والسبيل إليه الجهاد

ولا يتوقف الأمر على مواجهة هؤلاء وردعهم بضروب السياسات، بل الأولى بالإمام أن يرتب الرجال والعدد في أنحاء البلاد حسماً لثوران هؤلاء، قبل أن يثوروا، فإن أهل الشر والفساد متى رأوا رجال الأمن يملؤون البلاد، ارتدعوا وامتنعوا. (١)

(ب) ما يتعلق بالجزئيات: وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فصل الخصومات، وقطع المنازعات: وهذا يناط بالقضاة والحكام؛ حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم. وهذا نظر جزئي ما دام تعلقه بالآحاد والأفراد. (٢)

القسم الثاني: حفظ المراسد على أهل الخطّة:

وهذا من باب سد الذرائع المفضية إلى اختلال نظام الأمن الداخلي، ويتم ذلك بإقامة السياسات والعقوبات الراجزة من ارتكاب الفواحش والموبقات، ليأمن الناس في معاشهم وسبلهم، وتحصيل مقاصدهم، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال. (٣)

والغرض حفظ المقاصد على الناس: النفس والمال والعرض والعقل. فالمرشد: المقاصد، وهو تفسير بما يؤول الأمر إليه، وأصل المرشد: مقاصد الطرق أي استقامتها (٤)، فاستقامة الطرق يؤول إلى أمن الناس في تحصيل مقاصدهم.

فهذا يدخل فيه أبعاد الأمن القومي خلا البعد الجيوبولوتيكي.

القسم الثالث: القيام على المشرفين على الضياع بأسباب الصون والحفظ والإنقاذ، وهم من لا يستطيع

(١) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٢. الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١٣.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٢. الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٣، ٢٣٢.

(٤) الجوهرى، الصجاح، ص: ٤٧٤. ابن دريد، جمهرة اللغة، مجلس دار المعارف، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ، ص: ٢٤٦. ابن فارس، مقاييس اللغة، (٣١٨/٢).

(٥) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٣، ٢٣٢ وما بعدها.

المبحث الرابع: تأمين الأموال والرجال والعُدَد

اللازمة:

حيث اتسعت الأبعاد الأمنية داخل المجتمع وخارجه؛ لتحقيق الأمن المطلوب، نجد أهل العلم يفرّدون لهذا الباب استقلالاً مبحثاً خاصاً بنظر الإمام في أحكام الدنيا، التي لا قوام للدين إلا بها، ولا يتأتى أداء هذه المهمة العظيمة الخطر إلا بنجدة عظيمة من الرجال في كافة المستويات الأمنية المطلوبة، على مستوى الدولة جغرافياً بتمامها، وُعدَد وعتاد وأموال.

فيشتد الحديث هنا عن الأمن الاقتصادي والمالي، لما تقتضيه الحماية الأمنية الداخلية والخارجية من القوة الشرطية والعسكرية والمخابراتية وغيرها، والُعدَد والعتاد والآلات والمهمات اللازمة لرفع القوة - تلك القوى العسكرية - إلى أعلى درجات الاستعداد والتأهب.

فيتطرق الحديث إلى:

- موارد الدولة المالية، وما تصل إليه يد الإمام منها، مما تتعين مصارفه، كالزكوات، أو ما لا تتعين مصارفه وهو المرصد للمصالح.

- الرجال الذين يقومون بهذه المهام، سواء من الجنود والعسكر، أو الموظفين الإداريين في الدولة على اختلاف مراتبهم ورتبهم، أو العلماء على اختلاف طبقاته، بدءاً من طالب العلم وانتهاً إلى المجتهد المستقل.

- العدد والعتاد اللازم لجميع ذلك. (٤)

كما تطرق الجويني إلى أنه كما يلزم الإمام إعداد الرجال لمختلف المهام، فإنه أيضاً يلزمه إعداد وتدريب

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٢، ٢٣. الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٤٠ وما بعدها.

ومناذرة أهل الكفر والعناد. (١)

ولا يخفى أن هذا البعد هو ما يسمى بالجيوپولوتيكي في الاصطلاح المعاصر، وإن كان مفهوم الجهاد أعم من ذلك بكثير.

كما أنه يتوقف على الاقتدار، وعلى القوة المالية والاقتصادية، وعلى العدد من الرجال والعتاد. (٢)

كما أن على الإمام القيام بحفظ الخطّة، وهو ما يعرف بأمن الحدود، وهي نقطة الفصل بين الداخل والخارج.

أمن الحدود: حَفْظُ حدود أرض الإسلام، بالعدة المانعة والقوة الدافعة، عَنِ الأعداء والمغيرين. وسبيل ذلك: (أ) سَدُّ الثُّغُور.

(ب) إقامة الرِّجَال على المَرَاوِد. (٣)

فهنا أمران:

١- الازدياد في الخطّة. أي: التَّوسُّعُ في أَرْضِ الإسلام. ويسمونه: طَلَبٌ ما لم يَحْصُلْ. ومبحثه في الجهاد بنوعيه: الطلب والدفع، والمقدم في المعنى هنا جهاد الطلب.

٢- حَفْظُ الخطّة. أي: حَفْظُ الأَرْضِ الإسلامية المَوْجُودة الحالية. ويسمونه: حَفْظٌ ما حَصَلَ. وتحقيقه من خلال أمن الحدود، وكذلك الأمن الداخلي كما سبق.

(١) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠١، ٢٠٦ وما بعدها.

(٢) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٨.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٢. الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٠١، ٢١١.

الأموال، ولا يقتصر على ما يأتيه من ثابت الأموال، خاصة وأن معظمها يأتي من باب الجهاد، فكيف يكون الأمر إذا عطل أو توقف الجهاد؟

لأداء مختلف المهام:
- بالعلم اللازم، فلا يبق علم في الدنيا إلا وعند المسلمين أصله وفرعه.

وإذا كان قيّم مال الطفل مأموراً بإنمائه، فليس أمر الأمة بأقل، ولا نظر الإمام القوام على أرض الإسلام بأقصر نظراً وفكراً من قيّم^(١) وأهم من يراعه الإمام بنظره من الرجال، ثلاثة:

تضعنا رؤية السلف لقضية الأمن القومي، أمام تحديات عسيرة وصعبة، لا سيما في الوقت الذي تمر به الأمة الآن، والذي يعد من أسوأ فترات الاستضعاف على مر تاريخها، والذي تحتاج فيه إلى نهضة حضارية شاملة، في مختلف العلوم.

- وبالعقد اللازمة، فكذلك لتبقى للمسلمين الغلبة والقوة والعزة.
- وبالمال، ليتفرغوا لأداء مهام الحفظ والردع.
فمدار الاستقلال على العلم والقوة والمال.

خاتمة

تضعنا رؤية السلف لقضية الأمن القومي، أمام تحديات عسيرة وصعبة، لا سيما في الوقت الذي تمر به الأمة الآن، والذي يعد من أسوأ فترات الاستضعاف على مر تاريخها، والذي تحتاج فيه إلى نهضة حضارية شاملة، في مختلف العلوم.

في الوقت الذي تواجه فيه تحديات خارجية من مختلف الدول الكبرى، التي لا تقتأ تضع العراقيل أمام نهضتها الشاملة. وداخلية من أذئاب الخارج، ومنافقي الداخل، وحاملي لواء التبعية والانهازمية.

هنا تطرأ علينا الحاجة الملحة إلى فقه جديد في السياسة الشرعية، لا سيما في العلاقات الدولية، والسياسة الخارجية، والدبلوماسية الرفيعة المستوى.

وهل نحتاج إلى إعادة كتابة الفقه الإسلامي ليتناسب مع واقعنا الجديد بمتغيراته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، التي تناسب مرحلة الاستضعاف؟

هذه الحاجة الملحة تنطلق من فهم لا للنصوص الشرعية وحسب، بل لكتب السلف كذلك.

وهل لم تبذل هذه الجهود؟ ولم يوجد هذا الفهم؟

١- المحتاجون من الفقراء والمساكين. وهؤلاء سبق ذكرهم في الأمن الداخلي.

٢- المرتزقة من العساكر والأجناد. وهم نجدة المسلمين وعدتهم، وأزرهم وشوكتهم، فينبغي أن يصرف إليهم ما يرم خلتهم، ويسد حاجتهم، ويستغنوا به عن وجوه المكاسب والمطالب، ويتهيئوا لما رُشحو له، ويكونوا على أهبة الاستعداد متى طُلبوا.

٣- الذين انتصبوا لإقامة أركان الدين، وانقطعوا بسبب اشتغالهم واستقلالهم بها عن التوصل إلى ما يقيم حاجتهم، ويسد خلتهم، ولولا قيامهم بما لابسوه لتعطلت أركان الإيمان.

فعلى الإمام أن يفيهم مؤنتهم حتى يسترسلوا فيما تصدوا له بفراغ جان، وتجرد أذهان، وهؤلاء هم القضاة والحكام والقسام، والمفتون والمتفقهون، والمؤدّبون وطلبة العلم المتعلق بمصالح الدين؛ لأنهم إن لم يُكفّوا لم يتمكنوا من الطلب. وكذلك كل من يقوم بقاعدة من قواعد الدين يليه قيامه عما فيه سداه وقوامه.^(٢)

فيعود الأمر إلى إعداد الرجال، الذين ينتصبون

(١) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٤١، ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) الجويني، غياث الأمم، ص: ٢٤٤ : ٢٤٦.

والغربية التي تخرج علينا لتظهر المواطن التي اقتبست منها الحضارة الغربية من كتب أهل الإسلام.

فهذه النظم السياسية، وتلك النظريات الاقتصادية، وهذا علم الاجتماع، وهذه الطرق الفلسفية، بل وهذه العلوم النفسية، وغير ذلك تم اقتباسه من حضارة الإسلام.

هل هذه منقبة؟ نعم، هي منقبة لعلماء السلف، الذين قاموا بدورهم على أكمل وجه، ولكنها سبة لعلماء العصر الحديث، عصر الاستضعاف، الذي أعقب سقوط دولة الإسلام، لا منذ إعلان سقوط الخلافة، بل منذ بدأ منحى الدولة العثمانية في الهبوط، بل قبل ذلك بكثير، حيث ظهرت إرهابات السقوط.

نحتاج إلى عقول تؤمن بالعتيدة أيما إيمان، وقد اختلط الإخلاص بدمها ولحمها، وانتفضت بها الهمم والعزائم، وتجردت من الأنا والأهواء وأدواء القلوب، لكي تعيد كتابة الحضارة مرة أخرى.

وما الأمن القومي: مفهومه ومضمونه، طرقه ووسائله، مرتكزاته وأبعاده، مستوياته ومجالاته، إلا خير معبر عن خريطة استراتيجية تفصيلية لدولة حضارية قوية، في جميع المجالات، وعلى مستوى الأصعدة كلها.

ولم تحدث تلك المحاولات؟

قد وجدت، ولكنها جهود منثورة مبعثرة، وتحتاج إلى أضعاف ما بذل، تحتاج إلى مؤسسات علمية، ومراكز بحثية، تصل الليل بالنهار، عاكفة على كتب السلف لاستخراج كنوزها في شتى المجالات، تبني حضارة اليوم، كما بنى السلف من خلالها حضارة الأمس.

وبالمثل هل نحتاج إلى إعادة قراءة السيرة النبوية، التي مثلت أعلى درجات البناء الحضاري لدولة الإسلام؛ لنستخلص منها النظريات والتجارب العملية التطبيقية؟

هذه السيرة التي تعد خير مثال تطبيقي للسياسة الشرعية، وللأمن القومي.

وقد ذكرنا أن السيرة النبوية خير مثال لقضية الأمن القومي بجميع أبعاده ومستوياته ومجالاته، والتي ظهرت فيها قضية الأمن القومي لدولة الإسلام، بصورة متغيرة ديناميكية متطورة نامية.

هذه الصورة التي تلقفها علماء السلف ليتم صياغتها في إطار نظري عملي، قابل للتطبيق الواقعي، بل قد تم تطبيقه عبر تاريخ دولة الإسلام، بل ما كتبت كتب السياسة الشرعية إلا من أجل أن يطبقها سلاطين وخلفاء ورؤساء دولة الإسلام.

إن من نافلة القول المأساوي أن يتم الاعتراف بأن الحضارة الغربية ما قامت إلا على ما اغترفته من حضارتنا الإسلامية، وكم من الدراسات الإسلامية

معلومات إضافية

مفهوم الأمن القومي الحديث:

على الرغم من حداثة الدراسات في موضوع «الأمن» فإن مفاهيم «الأمن» قد أصبحت محددة وواضحة في فكر وعقل القيادات السياسية والفكرية في الكثير من الدول.. وقد برزت كتابات متعددة في هذا المجال، وشاعت مفاهيم بعينها في إطاره، لعل أبرزها «الأمن القومي الأمريكي» و«الأمن الأوروبي» و«الأمن الإسرائيلي» و«الأمن القومي السوفييتي» قبل تفككه.

وفي مجال التوصل إلى مفهوم متفق عليه «للأمن»، فإنه يجدر بنا التعرف على ذلك المدلول في إطار المدارس الفكرية المعاصرة:

«فالأمن» من وجهة نظر دائرة المعارف البريطانية يعني «حماية الأمة من خطر القهر على يد قوة أجنبية» ومن وجهة نظر هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي الأسبق يعني أي تصرفات يسعى المجتمع عن طريقها إلى حفظ حقه في البقاء.

ولعل من أبرز ما كتب عن «الأمن» هو ما أوضحه «روبرت مكنمارا» وزير الدفاع الأمريكي الأسبق وأحد مفكري الاستراتيجية البارزين في كتابه «جوهر الأمن».. حيث قال: «إن الأمن يعني التطور والتنمية، سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية في ظل حماية مضمونة». واستطرد قائلاً: «إن الأمن الحقيقي للدولة ينبع من معرفتها العميقة للمصادر التي تهدد مختلف قدراتها ومواجهتها؛ لإعطاء الفرصة لتنمية تلك القدرات تنمية حقيقية في كافة المجالات سواء في الحاضر أو المستقبل».

وقد عرّفته موسوعة السياسة بأنه: «تأمين سلامة الدولة ضد أخطار خارجية وداخلية قد تؤدي بها إلى الوقوع تحت سيطرة أجنبية نتيجة ضغوط خارجية أو انهيار داخلي».

ويعرّفه الدكتور علي الدين هلال بأنه: «تأمين كيان الدولة والمجتمع ضد الأخطار التي تتهددهما داخلياً وخارجياً، وتأمين مصالحهما، وتهيئة الظروف المناسبة اقتصادياً واجتماعياً لتحقيق الأهداف والغايات التي تعبر عن الرضاء العام في المجتمع».

وقيل أيضاً بأن الأمن هو: «الجهد اليومي المنظم الذي يصدر عن الدولة لتنمية ودعم أنشطتها الرئيسية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ودفع أي تهديد أو تعويق أو إضرار بتلك الأنشطة».

كما يذكر الدكتور ممدوح شوقي أنه: «قد جرى العمل على أن المقصود بالأمن في مفهومه الواسع هو تحقيق الأمن على المستويين الداخلي والخارجي».

وأخيراً يذكر الدكتور عبد الله القبايع أن الأمن لأي دولة يتكون من ثلاثة مستويات: داخلية، وإقليمية، وخارجية».

وفي إطار هذه الحقيقة يكون المفهوم الشامل «للأمن» من وجهة نظري هو: «القدرة التي تتمكن بها الدولة من تأمين انطلاق مصادر قوتها الداخلية والخارجية، الاقتصادية

والعسكرية، في شتى المجالات في مواجهة المصادر التي تتهدّدُها في الداخل والخارج، في السلم وفي الحرب، مع استمرار الانطلاق المؤمن لتلك القوى في الحاضر والمستقبل تخطيطاً للأهداف المخططة». ومن خلال التعريفات السابقة يمكن لنا أن نعطي تعريفاً للأمن في مفهوم الإسلام فنقول بأنّه يعني: السلامة الحسيّة والمعنوية، والطمأنينة الداخلية والخارجية، وكفالة الحياة السعيدة للفرد.

الأمن القومي:

على ضوء المفهوم الشامل للأمن، فإنه يعني تهيئة الظروف المناسبة والمناخ المناسب للانطلاق بالاستراتيجية المخططة للتنمية الشاملة، بهدف تأمين الدولة من الداخل والخارج، بما يدفع التهديدات بمختلف أبعادها، بالقدر الذي يكفل لشعبها حياة مستقرة توفر له أقصى طاقة للنهوض والتقدم.

من هنا فإن شمولية الأمن تعني أن له أبعاداً متعددة..

أولها: البعد السياسي.. ويتمثل في الحفاظ على الكيان السياسي للدولة.

ثانياً: البعد الاقتصادي.. الذي يرمي إلى توفير المناخ المناسب للوفاء باحتياجات الشعب وتوفير سبل التقدم والرفاهية له.

ثالثاً: البعد الاجتماعي.. الذي يرمي إلى توفير الأمن للمواطنين بالقدر الذي يزيد من تنمية الشعور بالانتماء والولاء.

رابعاً: البعد المعنوي أو الأيديولوجي.. الذي يؤمّن الفكر والمعتقدات، ويحافظ على العادات والتقاليد والقيم.

خامساً: البعد البيئي.. الذي يوفر التأمين ضد أخطار البيئة، خاصة التخلص من النفايات ومسببات التلوث حفاظاً على الأمن.

المصدر:

الركائز الأساسية للأمن القومي، شيرين الضاني، «الأمن القومي ومشروعيته في الإسلام»، على الرابط التالي:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=232581>